سرديات الخطاب والنص في تجربة سعيد يقطين النقدية

Narratology of discourse and text in Saeed Yaqtin's critical experience

د. سحنين علي

أستاذ محاضر -أ- (تخصص نقد أدبي معاصر (سرديات)

جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة

sahnineali20@gmail.com

تاريخ الإرسال: ../../....	تاريخ القبول: ../../....	تاريخ النشر: ../../....

الملخص:

كان للمحاولات التوسيعية التي شهدتها السرديات في محاضنها الأصليّة الغربية على أيدي بعض الباحثين والدارسين أمثال "ماتيو كولاس" و"مايك بال" و"ياب لينتفلت" أثره المباشر في حصول تراكم لخطاب السّرديّات في النّقد العربي والمغاربيّ على وجه الخصوص تراوح بين حصر موضوعها على الخطاب وانغلاقها عليه، وبين توسيع حدودها ومجالاتها، بانفتاحها على النص، متجاوزة بذلك الحدود التي كرّستها جهود المؤسّسين "جينات" و"تودوروف" إبان الحقبة البنيويّة. من هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة أن تسلط الضوء على تجربة رائدة في الدرس السردي العربي، ويتعلق الأمر بتجربة الباحث المغربي سعيد يقطين بوصفه أحد أبرز النقاد العرب الذين تمثلوا تجربة السرديات في قسميها الحصري (الخطاب) والتوسيعي (النص)، في مختلف دراساته وأبحاثه المتتابعة التي قادت إلى بناء مشروع سردي ونظرية متكاملة في نقد السرد العربي.

الكلمات المفتاحية: السرديات/ سرديات الخطاب/ سرديات النص/ النص/ الخطاب

Summary:

It was for attempts were expansionary witnessed by the narratology in the Western origin, At the hands of some researchers and scholars as "Matthew colas" and "Mike pal" and "yap lintvelt", direct effect, to led to an accumulation for narratology discourse in arab and Maghreb criticism in

particular, distributed between restricting its operation on discourse, and between its openness and between openness on components of the text, and overtaking the border structuralism painted by Genet and Todorov. From this point, this study attempts to shed light on a pioneering experience in the Arabic narrative lesson, It concerns the experience of the Moroccan researcher "said yaktin", as one of the most prominent arab critics who represent the experience of narratology In its section exclusive (discourse) and expanded (text), In his studies and successive researches that led to the construction of narrative project and integrated theory in the criticism of the arabic narration.

key words :Narratology, discourse narratology, text narratology, text, discourse.

1-ملمح السّرديّات العربية:

بدأت السّرديّات في نسختها العربية حصريّة ملتزمة بالحدود المنهجيّة المرسومة في أثناء الحقبة البنيويّة من قبل المؤسّسين (مؤسّسو السّرديّات الفرنسيّة) "تودوروف" و"جينات" على أساس أنّها الأصل الأوّل الذي انبنت عليه السّرديّات عامّة في مراحل تشكّلها الأولى.

من هذا المنطلق فلا غرابة أن تقتصر جهود النّقاد العرب في هذه الفترة (منتصف الثّمانينيّات) على دراسة الخطاب ووصف مكوّناته اللّفظيّة والبنيويّة دون الالتفات إلى النّصّ بوصفه مكوّنا آخر من مكوّنات المحكيّ، ذلك لأنّ كل البنيويّين "الذين يقفون عند الحد اللفظي [للمحكي] (...) لا يميزون بين الخطاب والنص. إنهما يُستعمَلان بالدلالة نفسها (...) وهكذا نجد في كتابات [جينات]، مثلا، أنه يستعمل [المحكي] أحيانا وهو يعني من خلاله الخطاب، وأحيانا أخرى النص. ولا غرو في ذلك، إذ إن الاستعمال الأحادي الدلالة، تبعا للحد الذي يقف عنده، هو وأمثاله، لا يستدعي أن يحمل أحدهما بدلالة تختلف باختلاف المصطلح الموظف. لذلك فنحن عندما نصادف الخطاب السردي أو النص السردي في كتابات [جينات] أو "تودوروف" علينا ألا نفكر في اختلافهما دلاليا. إنهما يحملان معنى واحدا، وإن كان الاستعمال المهيمن هو الخطاب، أما النص، فلا يوظف إلا بين الفينة والأخرى"1 في مختلف دراساتهما السّرديّة.

لئن بدأت السّرديّات العربية حصريّة متساوقة مع انشغالات النّقاد البنيويّين، في منافحتهم عن خطاب المحكيّ وولعهم الشّديد بمكوّناته وتمفصلاته، ممّا جعل السّاحة النّقديّة العربية في منتصف الثّمانينيّات من القرن الماضيّ تشهد العديد من الجهود التي سعى أصحابها إلى تكريس أطروحة السّرديّات الحصريّة والمراهنة عليها بوصفها خيارا نقديّا جديدا في تحليل مكوّنات الخطاب الرّوائيّ العربيّ واستكشاف خصوصيّات تشكّله وبنائه؛ فإنّ ذلك كان في أثناء لحظات الالتقاء الأولى مع هذا الاختصاص النّقديّ قبل أن يتّجه معظم النّقاد العرب المهتمين بالسرديات إن لم نقل جلّهم صوب النّصّ موسّعين من دائرة اهتمامهم ومنفتحين على مشاغل جديدة لم يتم الالتفات إليها سابقا.

تشكّل هذا النّوع من الوعي مع تزايد الاهتمامات الدّاعية إلى مساءلة أطروحة السّرديّات الحصريّة والدّخول في حوار مستمرّ مع مفاهيمها وأدواتها المنهجيّة والإجرائيّة، ممّا أدّى إلى حصول مراجعة شبه كاملة لهذه الأطروحة بإعادة النّظر في منطلقاتها وفي الحدود الضيّقة التي باتت تشغلها والمفاهيم التي تتكئ عليها في بناء تصوّراتها وفي مقارباتها للخطاب السّرديّ، وكلّ ذلك تمّ من منظور يراعي التطوّرات الحاصلة في ميدان العلوم الإنسانيّة عامّة، والدّراسات النّقديّة والسّرديّة الحديثة بصفة خاصّة.

بذلك "استطاعت السرديات أن تحقق في السنوات الأخيرة قفزة نوعية عند مساءلتها للعديد من المكونات التي تركب النص السردي، وذلك على مستوى التفكير (أو بالأحرى إعادة التفكير) في تخصيص مجال البحث وتعميق مساره بجملة من المباحث الإضافية والتي تمكن الدراسة السردية من الانفتاح على أكبر قدر ممكن من المقاربات والتناولات بخصوص صوغ التصور أو تعيين مجال التناول منهاجيا وإجرائيا"2. بذلك أثمرت هذه المراجعة المنهجيّة توجّها جديدا من الاشتغال السّرديّ عمل أصحابه على الإسهام في توسيع أطروحة السّرديّات الحصريّة وإثرائها، من خلال دعوتهم إلى تجاوز حدودها الضيّقة المنحصرة على مستوى الخطاب، وتغيير

موقفهم من مكوّنات المحكيّ، مميّزين في ذات الصّدد بين ثلاثة مكوّنات للمحكيّ هي: (القصّة، الخطاب، النّصّ) على خلاف التّقسيم الثّنائيّ: (القصّة، الخطاب) الذي أقرّه البنيويّون.

أنتج هذا التّقسيم الثّلاثيّ للمحكيّ "سرّديّات توسيعيّة" أو "سرديّات للنّصّ"3 –كما يسمّيها سعيد يقطين– لا تعترف بالتّماهي أو التّطابق بين الخطاب والنّصّ على النّحو الذي سجّل مع أصحاب السّرديّات الحصريّة، بل تنظر للنّصّ على أنّه وحدة لسانيّة أكبر وأشمل من الخطاب تستوعب مكوّنات أخرى تجب الإحاطة بها جميعا عند دراسة المحكيّ.

تمثّل "سرديّات النّصّ" طرحا منهجيّا جديدا وإحدى أهمّ تمفصلات السّرديّات التي أسهمت في إغناء موادّ هذا الاختصاصّ وتعميق مباحثه بمفاهيم وتصوّرات جديدة يمكنها أن تفتح "آفاقا جديدة للسرديات، تضمن لها استقلالها وانفتاحها في آن واحد، وتعضد احتمالات تفاعلها مع غيرها من الاختصاصات والعلوم، وتضمن لها كذلك إمكانيات هائلة للتجدد، ولمراكمة نتائج يمكن أن تستثمرها علوم أخرى مجاورة"4. ولما كانت "سرديّات النّصّ" تشكّل ملمحا بارزا في خطّ التّوسيع الذي دأب بعض النّقاد5 على رسمه للسّرديّات؛ فإنّ هذا التّوسيع أخذت مظاهره أبعادا منهجيّة وأخرى تنظيريّة6*لم تكن السّرديّات العربية بمنأى عنه، بل نشأت في سياقه متزامنة مع اجتهادات أصحاب هذا التوجّه الدّاعي إلى توسيع مجالات السّرديّات وحدودها بجعلها تنفتح على النّصّ من جهة دون أن تتجاوز الاهتمام بالخطاب بوصفه المنطلق الأساسيّ في مقاربة جميع مستويات النّصّ ومختلف أبعاده الدّلاليّة من جهة أخرى، ممّا أسهم في تشكّل مواقف وطروحات منهجيّة داخل أطروحة السّرديّات التّوسيعيّة تتبنّى النّظرة الشّموليّة للمحكيّ وتؤكّد الطّابع التّكامليّ بين التّوجّهين (سرديّات الخطاب وسرديّات النّصّ) لأنّ "سرديات النص لا يمكنها أن تتحقق إلا على أساس سرديات الخطاب ضمنا أو مباشرة، ولكنها لازمة لأنها محددة، ولأنها الأصل الذي قامت على أرضيته السرديات"7. وبمعنى آخر أنّ الإحاطة بالنّصّ وبأبعاده الدّلاليّة لا يتمّ إلا بالمرور عبر المستويات اللّغويّة والتّعبيريّة للخطاب.

لما كانت ملامح السّرديّات في نسختها العربية –كما سبقت الإشارة– قد ارتسمت في ظلّ هذا التّوسيع المنهجيّ والتّنظيريّ الذي شهدته السّرديّات الغربيّة منذ أواسط الثّمانينيّات على أساس أنّه السّياق الخاصّ الذي أوجدها وتزامنت في ظهورها معهاأ؛ فإنّ هذه القناعة السّائدة أوجبت التّدليل على ذلك ببعض النّماذج النّقديّة المغاربيّة ممّن أسهموا في تدعيم هذا الخيار النّقدي (خيار التّوسيع) ودأبوا على تكريسه لمواجهة خطاب المحكيّ والتّصدّي لمستوياته الجماليّة والتّعبيريّة ومختلف أبعاده النّصيّة والدّلاليّة. غير أن ما تمّ تسجيله عند متابعة جهود هؤلاء النّقاد أنّهم رغم انخراطهم في هذا المنحى التّوسيعيّ لأطروحة السّرديّات واتّفاقهم شبه التّام على تطوير مباحثها وإثراء مقولاتها ومفاهيمها، إلاّ أنّ ما ميّز جهودهم أنّها لا تعدو أن تكون مجرّد اجتهادات فرديّة يعوزها التّواصل العلميّ والتّفاعل المعرفيّ، ممّا نجم عنه –طبعا– اختلاف في الرّؤى والتوجّهات داخل هذا الاختصاص. فكلّ باحث أو ناقد له رؤية خاصّة في تأسيس سرديّاته، وفي بناء موادّها ومباحثها، كما هو الشأن بالنسبة للناقد سعيد يقطين موضوع هذه الدراسة.

2–سرديّات سعيد يقطين من الاشتغال على الخطاب إلى الانفتاح على النّصّ:

يعدّ "سعيد يقطين" أبرز النّقاد المغاربيّين الذين اقتنعوا بفكرة انفتاح السّرديّات، وساروا في فلك الاتّجاه التّوسيعيّ لمباحثها ومقولاتها، كان ذلك دأبه في جميع مؤلّفاته المتتاليّة التي تربط بينها خاصيّة رئيسية تتمثّل في تعالق النّصوص النّقديّة المشتملة عليها تماشيا مع المشروع النّقديّ الذي يطمح إلى تشييده، لذلك كانت أعماله النّقديّة اللاّحق منها يتناسل من صلب السّابق وينبني عليه، ممّا أضفى على خطابه النّقديّ طابعا خاصّا جعله يتّصف بنوع من الوحدة في الأهداف التي ينشدها ويسعى إلى تحقيقها8، ثمّ إنّه لمّا كانت هذه الأهداف المنشودة صعبة التحقّق دفعة واحدة ومنذ البداية سعى "يقطين" في تحقيقها بشكل تدريجيّ يكون دائما في خدمة خطّ التّوسيع المنهجيّ الذي رسمه وتنبّأ به للسّرديّات.

بالعودة إلى مقدّمات وخواتيم كتبه تتّضح هذه العلاقة التّكامليّة بين نصوصه النّقديّة؛ "إذ غالبا ما "يسترجع" في المقدمة الخلاصات التي كان قد انتهى إليها في الكتاب السابق و"يستشرف" في

الخاتمة القضايا التي سيطرحها في الكتاب اللاحق، مما يعطي لهما طابع "المقدمات الاسترجاعية"، و"الخواتم الاستشرافية""9. ففي مقدّمة كتابه "تحليل الخطاب الروائيّ" انطلق من طرح التّساؤلات الآتيّة: كيف يمكننا تحليل الرّواية العربيّة بدون تصوّر نظريّ للرّواية؟ ما هو موضوع هذه النّظريّة؟ ما هي أدواتها وأسئلتها؟ كيف يمكننا إقامتها وتطويرها؟؟10. لأنّ هذه الأسئلة شكّلت هاجسا في دراسته الأولى "القراءة والتّجربة" التي يرى أنّها "خطوة أولى قي رحلة الألف ميل، وهي بداية بدايات مشروع مازلت أطرح بصدده السؤال"11. ممّا يؤكّد طابع التّوسيع المنهجيّ الذي يجنح إليه الباحث على التوالي في بناء مشروعه النّقديّ.

كان ذلك ديدنه في كتابه "تحليل الخطاب الروائيّ"؛ إذ جاءت خاتمته إعلانا مباشرا عن القضايا التي سيتناولها في كتاب "انفتاح النّصّ الرّوائيّ". "علينا الآن [بعد الاشتغال على الخطاب] أن نعاين إلى أي حد يتطابق هذا الخطاب كمستوى نحوي مع النص كمستوى دلالي في علاقته بالبنية النصية والاجتماعية التي أنتج فيها، أي أننا نحاول الانتقال من "البنيوي" إلى "الوظيفي" أو الدلالي، من السرديات إلى السوسيوسرديات"12. بمعنى أنّه يسعى إلى توسيع مجالات بحثه بجعلها منفتحة على المستوى الدّلاليّ غير منغلقة على المستوى الخطابيّ، وهو ما أشار إليه في مقدّمة "انفتاح النّص الرّوائي" بقوله: "نعتبر هذا البحث حول "انفتاح النص الروائي" امتدادا وتوسيعا لـــ"تحليل الخطاب الروائي". وبذلك يندرج ضمن ما نسميه بـــ "السوسيوسرديات" كتخصص يسعى إلى توسيع السرديات البنيوية"13. وبهذا يتّضح مسعاه في إثراء مداخل السّرديّات وحدودها، وتعميق مفاهيمها وإجراءاتها النّقديّة والتّحليليّة.

من أجل تحقيق ذلك جعل وكده محاولة الإجابة عن التّساؤلات الآتيّة: ما هو النّصّ؟ كيف يدلّ؟ وعلى ماذا يدلّ؟ كيف نتلقّى نصّا أدبيّا أنتج في غير السّياق الذي نتلقّاه فيه كقرّاء؟ أين يمكننا الإمساك ببنياته الخارج نصيّة؟14. فهذه الأسئلة مجتمعة قد شغلت تفكيره في تحليل الخطاب الروائيّ وتمّ تحيينها في انفتاح النّصّ الرّوائيّ.

يأتي كتابه "الرّواية والتّراث السّرديّ" امتدادا للكتاب السّابق "انفتاح النّصّ الرّوائيّ" الذي يعبّر فيه قائلا: "يأتي هذا البحث [الرواية والتراث السردي] امتدادا وتوسيعا للمبحث الموسوم بـــ "التفاعل النصي" في الكتاب المذكور أعلاه [انفتاح النص الروائي]. وهنا أسعى إلى معالجة مستوى آخر من مستويات التّفاعل النصي"15. و"يقطين" هنا يعلن صراحة أنّه يسعى إلى توسيع اهتمامه بظاهرة التّفاعل النصّي، وإبراز مختلف مظاهرها في المحكي الرّوائيّ، إثراء لمداخل السّرديّات ومجالاتها وميادينها، وتعميقا لأفكاره عن هذه الظاهرة في كتابه السّابق.

الأمر نفسه يقال عن كتاب " الكلام والخبر" الذي يقول في مقدّمته: "يأتي هذا الكتاب، كما يمكن أن يبدو ذلك للقارئ المتتبع، امتدادا لكتابي "الرواية والتراث السردي" (1992). إنه يسعى جاهدا للإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحتها في خاتمته المفتوحة، والمتعلقة بدراس السرد العربي القديم. كما أنه من جهة ثانية، يأتي مقدمة لمختلف أبحاثي عن "التراث" السردي العربي، وخصوصا ما تعلّق منها بالسيرة الشعبية التي أبحث فيها من خلال بنياتها الحكائية والسردية والنصية. هذا البحث الذي أريده متكاملا، ومنفتحا على مختلف القضايا والإشكالات والأسئلة التي تهم الإنسان العربي، والثقافة العربية وفي مختلف الزوايا والمستويات"16. فمن هذا المنطلق يتّضح ذلك التّعالق الشّديد، وتلك الرّوابط المتينة التي تجمع بين دراسات "سعيد يقطين" كلّها، وقد تبدّى ذلك في كون الواحدة منها تنبني على أسس سابقتها وتتشكّل، تماشيا مع رغبته التوسيعيّة والتّكامليّة التي ينشدها في بناء مشروعه السّرديّ.

إنّ هذه الظّاهرة أصبحت صفة ملازمة لجميع كتب "يقطين"، ذلك لأنّه لا يستكمل الحديث عن فكرة معينة أو طرح منهجيّ محدّد في أحد هذه الكتب إلاّ وقد امتلكه هاجس تطعيمها وتوسيعها في الكتب اللاّحقة. إنّ هذه المنظومة الفكريّة هي التي تعكس فكر "سعيد يقطين" وتوطّده ليس فقط على المستوى التّنظيريّ، وإنّما على المستوى التّطبيقيّ أيضا، فهو مشروع كليّ وطموح لا يستكمل بنيته إلاّ بطرح إشكالات تثبّت جذورها وتغلغلها في الدّراسات السّابقة، لكنّها لا تستنفد جميع

حمولاتها في المراحل الأولى، بل ترتبط بالتّساؤلات التي تستكشف راهنيّة السّرد العربيّ، وتستشرف مستقبله في أحضان التموّجات المعرفيّة والنّقديّة السّائدة17في البيئة العربيّة.

من هذا المنطلق الذي ينبني فيه اللاّحق على السّابق سار "يقطين" في كتبه الأخرى شاقّا طريقه نحو بناء صرح سرديّاته التّوسيعيّة، فهو يستحضر في كلّ دراسة القضايا السّابقة ليؤسّس للطّروحات الجديدة ضمن مشروعه السّرديّ العام، وذلك دائما من منظور يراعي توسيع هذه الطّروحات وتعميقها. ولئن انصبّ التّركيز في تناول منهجيّة "سعيد يقطين" التّوسيعيّة لأطروحة السّرديّات على ثلاثيّته الأولى فلأنّها تمثّل أبرز مرحلة في مسيرته النّقديّة وكذلك كونها متعلّقة بالعمل الرّوائيّ خاصّة.

إن سلوك "يقطين" هذا النّهج التسلسليّ في جميع أعماله ودراساته لعلّه نابع أوّلا من جدّية الطّرح المنهجيّ (السّرديّات) الذي يتعامل معه، ويسعى إلى استنباته باستمرار في ساحة النّقد المغاربيّ، وثانيا من خصوصيّة النّصوص التي يشتغل عليها وتنوّع صيّغها وأساليبها ومرجعيّاتها الثّقافيّة وحمولاتها المعرفيّة (الرّواية، السّيرة الشّعبيّة، الأجناس الأدبيّة)، ممّا يتطلّب معها التروّي في صناعة جهازه النّقديّ ونظريّاته التّحليليّة.

فإذا كانت حقيقة الرّواية مثلا –بوصفها شكلا لغويّا تخييليّا– تتركّز في قدرتها على الإيهام بالواقع على اختلاف مظاهره الاجتماعيّة، والنّفسيّة، والذّاتيّة، والحلميّة، والتّراثيّة، والتّاريخيّة، وجميع الهواجس والمكبوتات الشّعوريّة واللاّشعوريّة على حدّ تعبير الباحثة "مارت روبير" في دراستها الرّائدة "رواية الأصول وأصول الرّواية"18. وكانت السّيرة الشّعبيّة –بوصفها أيضا نصّا سرديّا– قادرا على استيعاب جميع الأجناس والأنواع والأنماط، وكذا احتفالها بالعوالم التّخييليّة والواقعيّة، وتفاعلها مع العديد من النّصوص الحديثة؛ فإنّ هذه الشّموليّة وهذا الثّراء والتنوّع يفرض "مسارا خاصا يعتمد على تحديد زاوية الرؤية بالدرجة الأولى، خصوصا إذا كان هذا التحديد نتاجا لعملية بحث مستمرة من طرف [الناقد سعيد يقطين] ومتسلسلة تبدأ بعمل تجذيري في كتابه "القراءة والتجربة" (1985)، وتعمق النظر في "تحليل الخطاب الروائي" "وانفتاح النص الروائي" (1989)

واستمر في "الرواية والتراث السردي" (1992)"19، و"الكلام والخبر" (1997)، وتنضج الرؤية وتتبلور" في كتاب "قال الراوي" (1997)، الذي يؤسّس "لسرديّات للقصّة" أو "للمادة الحكائيّة" بالبحث في مختلف بنياتها السّرديّة، مستفيدا من مقولات السّيميائيّات السّرديّة ولكن من منطلق يتلاءم مع تصوّره لأطروحة السّرديّات.

إنّ خصوصيّة الترابط المنهجيّ بين النّصوص النّقديّة التي أنتجها "سعيد يقطين" مكّن من إدراك تصوّره النّظريّ للسّرديّات ولأشكال تعامله مع هذه التّجربة وطريقة دمجها في السّاحة النّقديّة العربيّة، التي وإن كان يؤمن بحتميّة انفتاحها وتوسيعها، إلاّ أنّه ولأسباب علميّة ومنهجيّة فضّل الانطلاق من الحصر أوّلا، فكان ممّن أعلنوا عن ولائهم المنهجيّ للمفاهيم اللّسانيّة والبنيويّة في مقاربة خطاب المحكيّ، حيث ارتأى في بداية مسيرته النّقديّة تضييق دائرة اشتغاله بالإبقاء على أطروحة السّرديّات حصريّة، وذلك بالاشتغال على الخطاب أوّلا قبل توسيع مجالاتها وحدودها.

من هنا كان اشتغاله بمكوّنات الخطاب الرّوائيّ المغربيّ الجديد، في كتابه (القراءة والتّجربة) تدعيما لهذا التوجّه الحصريّ للسّرديّات، وهو ما أعلن عنه في مقدّمة هذا الكتاب، مبيّنا الأسس والمرجعيّات التي يستند إليها في هذه الدّراسة، والمستويات والمفاهيم التي يشتغل على أساسها، فهي "محاولة للبحث في مكوّنات هذا الخطاب الروائي الجديد ببلادنا، وهي مدخل لقراءة آمل أن تكون لاحقا، أكثر شمولا واستيعابا. تروم هذه القراءة أن تكون جديدة على مستويين:

1- البحث في مكونات الخطاب الروائي البنيوية، وهذه القضية ما يزال نقد الرواية ببلادنا والوطن العربي لا يعيرها كبير اهتمام، رغم بعض المحاولات القليلة والمتفرقة.

2- استعمال أدوات ومفاهيم جديدة تمتح بالأخص من السرديات (Narratologie) التي يعمل الباحثون في البويطيقا على بلورتها وتدقيقها لتصبح اتجاها متميزا في تحليل الخطاب السردي بصفة عامة"20. من هذا المنطلق كانت "القراءة والتجربة" إعلانا صريحا عن حصر موضوع

السّرديّات واشتغالها على الخطاب في مرحلة مبكّرة من مراحل التّعامل مع التّجارب النّقديّة الجديدة.

إذا كان "سعيد يقطين" فضّل حصر موضوع السّرديّات وانطلق من الاشتغال على الخطاب أوّلا؛ فإنّه كان على وعي تام بصعوبة الأمر وقتها؛ ذلك لأنّ فكرة التّوسيع في نظره تتطلّب توفّر الشّروط العلميّة اللاّزمة، والمعرفة الدّقيقة بالنّظريّات النّقديّة الغربيّة وتصوّراتها المنهجيّة وأدواتها الإجرائيّة؛ لأنّ بناء هذه النّظريّات النّقديّة والعمل على تطويرها وتعميقها في السّاحة النّقديّة العربيّة لا بدّ وأن يخضع لخصوصيّات الاشتغال العربيّ على خلاف ما عند الغرب أين تولد النّظريّات وتتطوّر بشكل طبيعيّ ومبرّر بحكم إنتاجه (الغرب) للمعرفة النّقديّة وامتلاكه أدوات التّطوير والتّوسيع.

يقدّم "سعيد يقطين" مبرّرات مقنعة لحتميّة الانحياز لأطروحة السّرديّات الحصريّة ولو بصفة مؤقّتة، إذ يصرح في كتابه "تحليل الخطاب الروائي" بالقول: "من خلال هذين الاتجاهين [يقصد اتجاه السّرديّات الحصريّة والتّوسيعيّة] أجدني أنحاز إلى الاتجاه الأول لاعتبارات عديدة من بينها أن التوسيع كما اقترحه ريكور أو كولاس له أبعاده المقبولة في الثقافة الغربية التي تتطور فيها الاختصاصات الأدبية بشكل متوازن، الشيء الذي يسهل عملية التعميم والاستفادة. أما في ثقافتنا فالأمر مختلف جذريا، لذلك لا بد من الحصر أولا، وكلما أمكننا توسيع المجال وذلك ليس رغبة ذاتية ولكن حاجة علمية يفرضها طابع توسيع الآفاق عندما نحقق أجوبة عن الحدود الأولى التي وقفنا عندها، أمكننا الانطلاق خارج الحصر أو الحد الذي طوقنا به أنفسنا في البداية"21. وبهذا التّفكير، فإنّ المنطلقات التي يبني عليها "يقطين" تصوّراته النّظريّة لا يحكمها التعسّف والانتقاء في اختيار الأدوات والمفاهيم العلميّة والنّقديّة، فهو يصدر عن وعي شامل بالنّظريّات وبظروف نشأتها وكيفيّات بنائها، منطلقا "من التفكير وطرائق البحث العلمي الذي يؤمن بالعمل [بوصفه] مشروعا قابلا للتطور والإغناء والتجاوز، وليس قوالب وصيغا جاهزة، تستورد من الآخر؟ وتطبق على النص العربي"22 بطريقة آليّة وتعسّفيّة لا تزيده إلاّ انغلاقا واعتسارا.

إنّه كان يطمح إلى الإسهام في استنبات سرديّات عربيّة والتّأسيس لها بشكل تدريجيّ يراعى فيه طبيعة التّطوّر ومتطلّبات التّوسيع والانفتاح، وهو مانهض به في دراساته المتتابعة التي تعدّ الواحدة منها امتدادا لسابقتها وتوسيعا لمشروعه السّرديّ؛ لذلك يعدّ اشتغاله بالخطاب وحصر موضوع السّرديّات في المرحلة الأولى من لحظات التّحاور والتّصاديّ مع هذا الاختصاص العلميّ ضرورة اقتضتها الحاجّة العلميّة، والضوابط المنهجيّة المتحكّمة في عمليّة بناء النّظريّات وإثرائها على الرّغم من أنّ "يقطين" كان منذ البداية مقتنعا بفكرة التّوسيع لا الحصر، وهي الفكرة التي تسعى الدّراسة إلى مباحثتها لدى استعراض أهمّ تجليّاتها في الفكر السّرديّ لديه بوصفها خاصيّة ملازمة لمعظم النّقاد المغاربيّين ولو بدرجات متفاوتة.

لا شكّ أنّ "سعيد يقطين" وهو يشتغل على الخطاب لم يكن مقتنعا بفكرة الحصر، ممّا جعله يؤكّد في غير ما موضع من كتابه "تحليل الخطاب الروائي على" أهمّية التّوسيع الذي يفترض الانتقال من المستوى النّحويّ إلى المستوى الدّلاليّ؛ لأنّه يرى بأنّ الحدّ النّحويّ لوحده غير كفيل بالإجابة عن الأسئلة التي يطرحها على الرّواية بوصفها خطابا أدبيّا ينتج ضمن خطابات أخرى أدبيّة وغير أدبيّة، وفي سياق بنيات ثقافيّة واجتماعيّة23 وإيديولوجيّة متنوّعة.

لذلك أيضا، وحرصا على تحقيق الانسجام والترابط المنهجيّ بين نسيج أفكاره وتصوّراته، وتجنبا للتعسّف عند الانتقال من الحدّ النّحويّ (الخطاب) إلى الحدّ الدّلاليّ (النّصّ) أو من سرديّات الخطاب إلى سرديّات النّصّ، فهو يرى قائلا: "ولتجنب التعسف في الانتقال منها [سرديات الخطاب] إلى سوسيولوجيا النص مع زيما، وجدتني أعمل على توسيع مجال السرديات أفقيا وليس عموديا كما بينت ذلك عندما تحدثت عن حدود السرديات، فكان علي تجاوز الحد النحوي إلى الدلالي، وبذلك وجدتني ألتقي مع زيما وأنا مشدود إلى المظهر النحوي. إن المظهر الدلالي توسيع للمظهر النحوي وليس إلغاء له أو قطيعة معه"24. من هنا كان اشتغال "يقطين" على النّصّ في كتابه "انفتاح النّصّ الرّوائيّ" يشكّل محطّة فعليّة لتوسيع أطروحة السّرديّات الحصريّة عن طريق الانتقال من الاشتغال على المستوى اللّفظيّ إلى المستوى الدّلاليّ، من السّرديّات إلى السّوسيوسرديّات25.

فبانفتاحه على النّصّ، وإعطائه بعدا دلاليّا يحدّد تحديدا مغايرا للخطاب على خلاف ما عند البنيويّين الذين يجعلونه مرادفا له، وهذا التّحديد جعله يقف على مكوّنات خاصّة بالنّصّ لا يمكن لها إلاّ أن تكون توسيعا لمكوّنات الخطاب على النّحو الآتي26:

المستوى النحوي	المستوى الدلالي
-الخطاب: أ-الراوي -المروي له ب-الزمن -صيغ الخطاب -الرؤية / الصوت	-النص: أ-الكاتب -القارئ ب-البناء النصي -المتعاليات النصية (التفاعل النصي) -الرؤيات-البنيات السوسيو-لسانية

27

يقدّم "يقطين" السّوسيوسرديّات بصفتها مدخلا لسرديّات اجتماعيّة ومشروعا لتوسيع موضوع السّرديّات أفقيّا28 ضمن مشروعه السّرديّ التّكامليّ. وقد أخذت مظاهر هذا التّوسيع الأفقيّ لموضوع السّرديّات عند "يقطين" أبعادا منهجيّة وتنظيريّة متكاملة في تأسيس مشروعه السّرديّ العام، وتتمثّل الأبعاد المنهجيّة في مواقفه المراجعة للطّروحات المنهجيّة التي كرستها السّرديّات الحصريّة، وللتّقسيم الثّنائيّ للمحكيّ (القصّة، الخطاب)، متبنّيا التّقسيم الثّلاثيّ (القصّة، الخطاب، النّصّ)، ومميّزا بين مكوّناته، كالآتي:

-القصّة: تتّصل بالمستوى الصّرفيّ، من خلال علاقة الفواعل (الشّخصيّات) بالأفعال (الأحداث).

-الخطاب: المستوى النّحويّ، وهو طريقة تقديم القصّة أو المادّة الحكائيّة، من خلال علاقة الفاعل (الرّاوي-المرويّ له) بالفعل (السّرد).

-النّصّ: المستوى الدّلاليّ، ويختصّ بإنتاج النّصّ من خلال علاقة الفاعل (الرّوائيّ - المتلقّي) بالنّصّ (الكتابة).29

ليتوصّل إلى أنّ كلّ مفهوم من هذه المفاهيم يمكن أن يقود إلى البحث في موضوع معيّن، من خلال اختصاص محدّد، كما يلي:

-القصّة ← الحكائيّة ← سرديّات القصّة.

-الخطاب ← السّرديّة ← سرديّات الخطاب.

-النّصّ ← النّصيّة ← سرديّات النّصّ.30

وقد خلص بناء على هذا التّحديد إلى وضع تصوّره للتّرهينات السّرديّة، كالآتي:

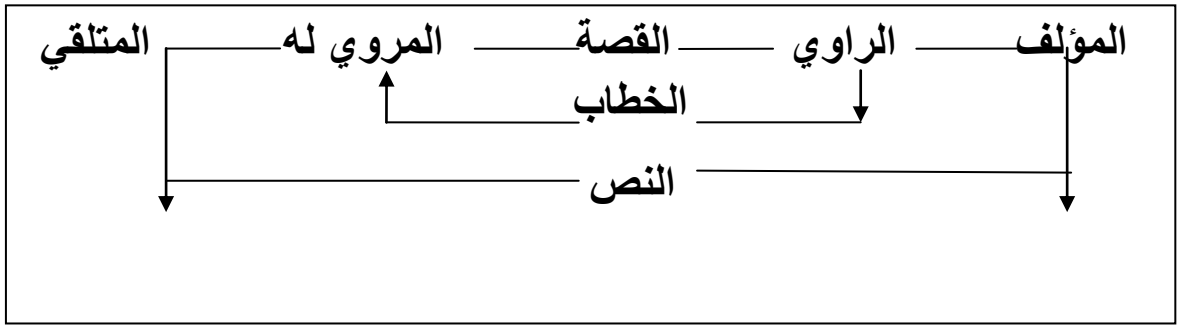

31

إن انفتاح "سعيد يقطين" على النّصّ أسعفه بشكل كبير على توسيع طروحات السّرديّات البنيويّة منهجيّا وتنظيريّا، ومكّنه ذلك من بحث العديد من القضايا المتعلّقة بالنّصّ مثل قضايا: التّناصّ والمتعاليات النّصيّة أو التفاعل النّصيّ بمختلف أنواعه التي أحصاها "جينات"، وأضاف إليها يقطين النّصّ المترابط (Hypetexte) الذي يتحقّق بوساطة الحاسوب والتكنولوجيا المعاصرة متمثّلة في شبكة الأنترنيت، وقد أتاح له ذلك الانتقال من الورقيّ إلى الرقميّ، وهو ما أسماه بـــ: "الوسائط المتفاعلة"32. لذلك فهو يرى بأنّه لا بدّ على المشتغلين بالسّرديّات أن يلتفتوا إلى دراسة المحكيّ بمختلف أشكاله وتحقّقاته اللّفظيّة والصّوريّة والحركيّة، ولا يبقون أسيري الاشتغال على النّصوص التّعبيريّة أو المكتوبة33، في ظلّ الثّقافة الرّقميّة الرّاهنة.

إذا كان "يقطين" قد عمل على توسيع حدود السّرديّات منهجيّا؛ فإنّه قد عني أيضا بتوسيع حدودها على المستوى التّنظيريّ، مرتئيا أن السّرديّات بإمكانها أن تنفتح على مجالات واسعة وعلوم أخرى غير اللّسانيّات (اجتماعيّة، نفسيّة، أنتروبولوجيّة...). وقد قاده ذلك إلى بلورة

اختصاصات فرعيّة داخلها وإجراء تمفصلات جديدة عليها وتطويرها أفقيّا وعموديّا. فإلى جانب تمفصلها –كما يرى يقطين– إلى سرديّات حصريّة وسرديّات توسيعيّة، يمكن الحديث عن سرديّات خاصّة تعنى بالخطاب وتختصّ بدراسته من جانبين:

1–النّوع السّرديّ: وهو ما تتميّز به مكوّنات نوع سرديّ عن نوع سرديّ آخر.

2–تاريخ السّرد: وتنظر فيه في تحوّلات الخطاب السّرديّ المعيّن34.

يؤكّد "يقطين" أنّه من خلال تفاعل السّرديّات النّوعيّة والسّرديّات التّاريخيّة، يمكن الحديث أيضا عن السّرديّات المقارنة التي تسعى إلى البحث في التجارب السّرديّة المختلفة باختلاف التجارب الإنسانيّة35. أمّا السّرديّات العامّة فترتبط عنده بالنّصّ وبمختلف أنماطه وأبعاده الدّلاليّة وتفاعلاته النّصيّة المتعدّدة؛ لذلك فهو يرى بأنّ الانفتاح على النّصّ يبيح الانطلاق من مكوّناته البنيويّة مثل التّفاعل النّصيّ والتلقّي، مما يجعل الحديث عن "سرديّات التّفاعل النّصيّ" و"سرديّات التلقّي" أمرا ممكنا. بمعنى أنّ السّرديّات تستفيد في هذا المضمار من نظريّات التّناص وجماليّات التلقّي، ومن جميع النّظريّات التي اشتغلت بالتّناص والتلقّي، وتعمل على تكييفهما وفق تصوّراتها وأبنيتها النّظريّة الذّاتيّة36. ويذهب أيضا إلى إمكانية "تحقيق الإجراءات نفسها فيما يتعلق بالأبعاد الاجتماعية والنفسية والذهنية وسواها، الشيء الذي يجعلنا أمام تحصيل اختصاصات جديدة عامة مثل السرديات الاجتماعية [السوسيو–سرديات] أو السرديات النفسية أو السرديات الأنتروبولوجية"37. وقد انتهى به الأمر إلى تجسيد تصوّره العام لمختلف الاختصاصات السّرديّة في المخطط الآتي:

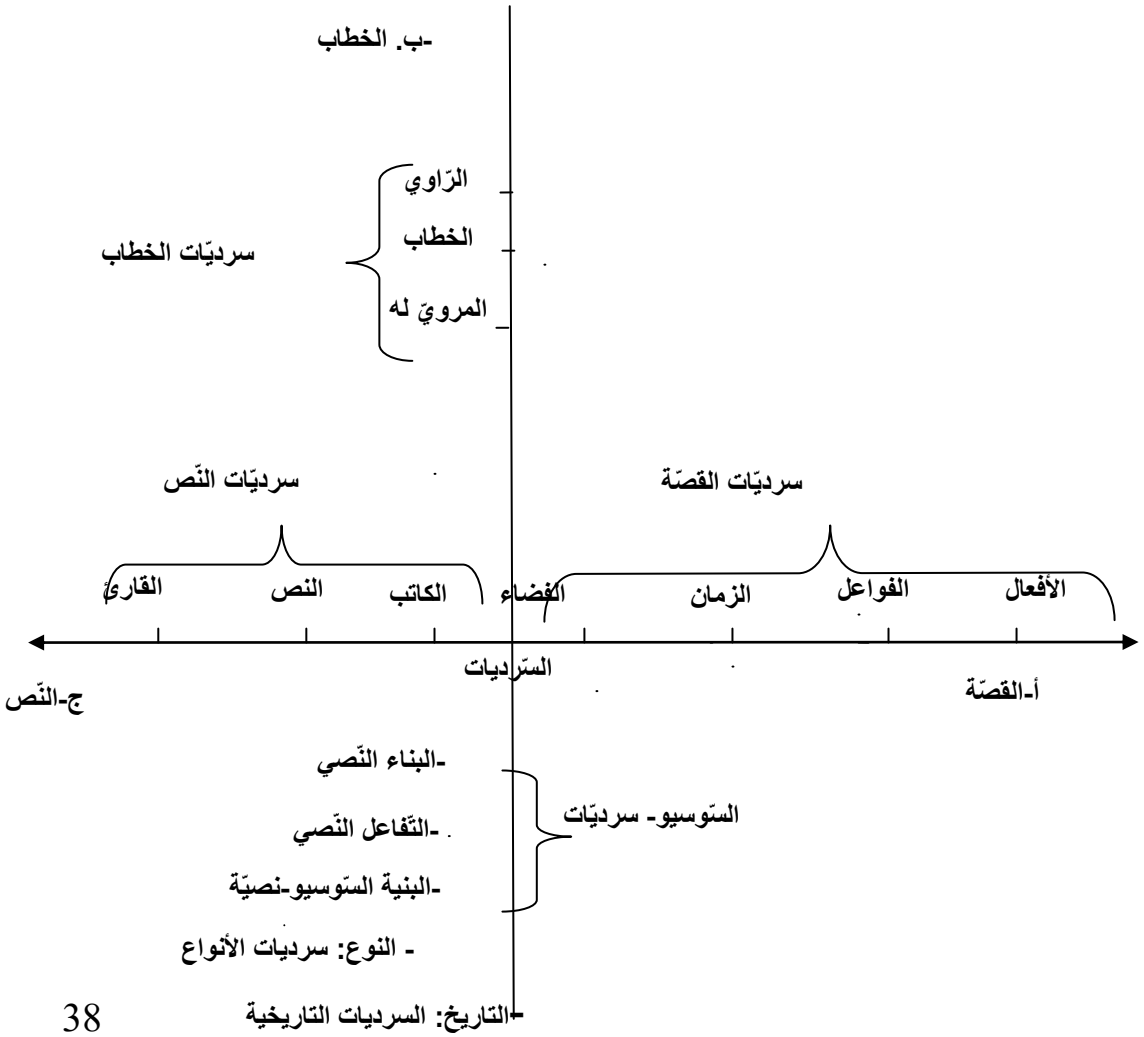
-ب. الخطاب
الرّاوي
الخطاب
المرويّ له
سرديّات الخطاب
سرديّات النّص
سرديّات القصّة
القارئ
النص
الكاتب
الفضاء
الزمان
الفواعل
الأفعال
السّرديات
ج-النّص
أ-القصّة
-البناء النّصي
-التّفاعل النّصي
-البنية السّوسيو-نصيّة
السّوسيو- سرديّات
- النوع: سرديات الأنواع
-التاريخ: السرديات التاريخية

38

في مقابل ذلك تتحدّد هذه الاختصاصات السّرديّة ضمن المدوّنة النّقديّة لدى "سعيد يقطين" كالآتي:

الاختصاص	الموضوع	التحققات
البويطيقا.	الكلام والخبر: 1997.	الأجناس الأدبية.
السرديات: سرديات الخطاب سرديات القصة	تحليل الخطاب الروائي: 1989. قال الراوي: 1997.	الرواية السيرة الشعبية.
النصيات/الوسائط المتفاعلة. سرديات اجتماعية سرديات تفاعلية سرديات تفاعلية	انفتاح النص الروائي: 1989. الرواية والتراث السردي:1992. النص المترابط 2008/2005.	الرواية. النص الورقي. النص الرقمي.

39

هكذا تتّضح بشكل جليّ ملامح أطروحة السّرديّات التّوسيعيّة كما يؤسّس لها يقطين، من خلال عمق التصوّرات التي يصدر عنها والمفاهيم التي يشتغل بها من أجل تحقيق غاياته وأهدافه الطّامحة إلى "خلق منهج تآلفي ازدواجي يستثمر نتائج سابقة لتأسيس فكر استشرافي لا يقبل النظرة الأحادية والانفصال المنهجي، بل يفتح هو الآخر مجالا للتطور والإبداع"40. وكلّ ذلك من أجل إرساء قواعد وأسس متينة لتصوّر عام وشموليّ لمقاربة السّرد العربيّ41 عامّة والرّواية بشكل خاصّ.

هوامش البحث:

1: يقطين (سعيد)، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2006، ص. 10، 11.

2: الحجمري (عبد الفتاح)، الجملة السردية، التخييل وتركيب السرد، مقاربة مقطعية لرواية مغربية، ضمن كتاب الرواية المغربية أسئلة الحداثة (وقائع ندوة وطنية عقدها مختبر السرديات بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، المغرب)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1991، ص.295.

3: تمثل سرديات النص موقف أصحاب النظرة التوسيعية لأطروحة السرديات الحصرية المحتفية بخطاب المحكي ومكوناته البنيوية: (الزمن، الصيغة، الصوت)، وهو موقف يتجاوز حدود هذه الأطروحة التي رسمها البنيويون للسرديات إلى الاهتمام بالنص ومختلف أبعاده الدلالية، وهي بذلك تنص على التقسيم الثلاثي للمحكي (الخطاب، القصة، النص)، ولو أنها تشدد على البنيات النصية، وقصدية الكاتب، وبعد التلقي في دراسة النص السردي.

4: يقطين (سعيد)، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1997، ص. 27.

5: هم الجيل الذي خرج من جناح النقاد البنيويين وعملوا على مناقشة طروحاتهم المنهجية وتوسيعها أمثال "كولاس" و"شلوميت" و"فاولر" و"شورت"...وغيرهم.

6: ينظر، ولد مولاي إبراهيم (محمد الأمين)، السرديات وخطاب السرد، مساهمة في منهجة أطروحة السرديات والتراكمات التي أنتجتها، دار الفكر، نوكشوط، ط1، 2010، ص. 92.

*: تتمثل الأبعاد المنهجية في مواقف هؤلاء النّقاد من المحكي ومكوناته ومن الاتجاهات السردية المقاربة له، حيث أعلن هؤلاء عن طرح منهجي جديد يدعو إلى إمكانية التوفيق والتكامل بين هذه الاتجاهات السردية لا سيما اتجاهي (السرديات البنيوية، والسيميائيات السردية) ومؤكدا في الوقت نفسه على ضرورة التضافر بين مكونات المحكي بما فيها القصة والخطاب والنص للإمساك بالسردية وهو ما وجد فسحة في الطرح المنهجي الذي قدمه "كولاس" من خلال إعادة رسمه لحدود السرديات منهجيا وتنظيريا في بحثه الموسوم بـــ:"حدود السرديات". أما الأبعاد التنظيرية فقد عبرت عنها تلك الدعوات المتتالية المشددة على إمكانية انفتاح السرديات على حقول معرفية متنوعة وتمفصلها إلى اختصاصات فرعية (سرديات للقصة، سرديات للخطاب، سرديات للنص.....إلخ)

7: يقطين (سعيد)، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، ص. 25.

8: ينظر، مريني (محمد)، قراءة في التجربة النقدية لسعيد يقطين، مجلة علامات، مجلة ثقافية محكمة، مكناس، المغرب،ع 22، 2004، ص. 74.

9: ينظر، المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

10: ينظر، يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي، السرد، التبئير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط4، 2005، ص. 7.

11: يقطين (سعيد)، القراءة والتجربة، حول التجريب في الخطاب الروائي الجديد بالمغرب، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1985، ص. 11.

12: يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي، ص. 387.

13: يقطين (سعيد)، انفتاح النص الروائي، ص. 5.

14: ينظر، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

15: يقطين (سعيد)، الرواية والتراث السردي، من أجل وعي جديد بالتراث، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص.9.

16: يقطين (سعيد)، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، ص. 11.

17:ينظر، حجاج (منى)، قراءة في كتاب الكلام والخبر لسعيد يقطين، ضمن كتاب التلقي والخطاب، دراسات في النقد المغربي الجديد، محمد مفتاح، سعيد يقطين، المصطفى الشاذلي، وحدة التكوين والبحث في الصورة: الصورة البصرية-الصورة في السرد، إعداد وتنسيق، عبد المجيد نوسي، جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الجديدة، المغرب، ص. 115.

18: ينظر، روبير (مارت)، رواية الأصول وأصول الرواية، تر، وجيه أسعد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1987، ص. 43.

19: حجاج (منى)، قراءة في كتاب الكلام والخبر لسعيد يقطين، ضمن كتاب التلقي والخطاب، دراسات في النقد المغربي الجديد، محمد مفتاح، سعيد يقطين، المصطفى الشاذلي، ص. 115.

20: يقطين (سعيد)، القراءة والتجربة، ص. 8، 9.

21: يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي، ص. 48.

22: يقطين (سعيد)، السرد والسرديات والاختلاف (وهم النظرية السردية العربية)، أشغال الملتقى الدولي حول السرديات، القراءة وفاعلية الاختلاف، المنعقد بجامعة بشار، يومي 4/3 نوفمبر 2007، ص. 19.

23: ينظر، يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي، ص. 52.

24: المصدرنفسه، والصفحة نفسها.

25: يقطين (سعيد)، انفتاح النص الروائي، ص. 36.

26: ينظر، يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي، ص.53.

27: ينظر، يقطين (سعيد)، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

28: إذا كان سعيد يقطين يمثل نموذجا بارزا في اتجاه توسيع السرديات أفقيا بجعلها -إضافة إلى اشتغالها على الخطاب - تنفتح على النص ومكوناته؛ فإن السرديات العربية شهدت العديد من المحاولات التي انخرط أصحابها في هذا المنحى التوسيعي ولكن في اتجاه عمودي يمكن أن نمثل له باشتغال "يمنى العيد" في كتابها "فن الرواية العربية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب" الصادر عن دار الآداب بيروت، ط1، 1998. الذي يعد نقلة نوعية في مسار تجربتها مع نقد السرد العربي؛ إذ عملت على توسيع مجال دراستها السردية لتشمل الخطاب والقصة والنص، وتشديدها على علاقة النص بالمرجع الاجتماعي.

29: ينظر، يقطين (سعيد)، السرديات والتحليل السردي، الشكل والدلالة، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء، المغرب، بيروت،لبنان، ط1، 2012، ص. 140.

30: ينظر، يقطين (سعيد)، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

31: ينظر، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

32: تتمثل في مختلف البرامج الرقمية والإلكترونية التي يتيحها الحاسوب وشبكة الأنترنيت، التي تسعى إلى المزج بين النصوص المكتوبة والمنطوقة والصور الثابتة والمتحركة والصوت والفيديو والمؤثرات الموسيقية والرسوم الخطية للتعبير

عن محتوى نص معين بطريقة إلكترونية ورقمية. وتعود الاهتمامات الأولى بالكتابة الرقمية أو النص المترابط إلى محاولات بعض الباحثين الأمريكيين (تيودور نيلسون، وجاكوب نيلسون، آندرس داييرغ، فيليب بوتس، جون كليمون...وغيرهم) –في ثمانينيات القرن العشرين– الذين حاولوا بلورة هذه الثقافة وخلق سبل جديدة وطرائق متنوعة لكتابة الأدب والمحكي بصفة خاصة على الفضاء الشبكي، مسهمين بذلك في تأسيس نظرية للمحكي المترابط. ينظر، فهيم شيباني (عبد القادر)، سيميائيات المحكي المترابط، مقدمة نقدية للرواية الرقمية، مقال منشور بمجلة مقاليد، محكمة مختصة بالنقد الأدبي والمصطلحية، تصدر عن جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ع4، 2013.

33: ينظر، يقطين (سعيد)، السرديات والتحليل السردي، الشكل والدلالة، ص. 134، 138، 139. وينظر، أيضا، كتابه من النص إلى النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2005. والنص المترابط ومستقبل الثقافة العربية (نحو كتابة عربية رقمية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2008.

34: ينظر، يقطين (سعيد)، الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي، ص. 26.

35: ينظر، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

36: ينظر، المصدر نفسه، ص. 27.

37: يقطين (سعيد)، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

38: ينظر، المصدر نفسه، ص. 32.

39: ينظر، يقطين (سعيد)، السرديات والتحليل السردي، ص. 139.

40: حجاج (منى)، قراءة في كتاب الكلام والخبر لسعيد يقطين، ضمن كتاب التلقي والخطاب، دراسات في النقد المغربي الجديد، محمد مفتاح، سعيد يقطين، المصطفى الشاذلي، ص. 114.

41: رغم القيمة العلمية، والكفاية المنهجية التي يتوفر عليها المشروع السردي لدى "سعيد يقطين"، ورغم كذلك الوعي المنهجي الذي أبان عنه الباحث في تعامله مع النظريات الغربية وفي محاورتها، وأيضا في اصطناع أدواته التحليلية، إلا أن مشروعه العلمي قد تعرض لحملات انتقادية كثيرة، لعل أبرزها تلك القراءة النقدية التي قدمها الناقد العراقي "عبد الله إبراهيم" في كتابه: (الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة)، وهي بعنوان، السردية واستبداد النموذج الغربي؛ حيث سجل العديد من الملاحظات التي أثارها كتابا يقطين: (تحليل الخطاب الروائي، وانفتاح النص الروائي)، منها أن النموذج الذي اقترحه "يقطين" ينبني على السجال والعرض والانتقاء والاستخلاص لا الاستقراء، منتهيا إلى أن تعميم هذا النموذج الغربي وتقديمه بوصفه هيكلا صالحا لتحليل مختلف الخطابات السردية، لا يخلو من مزالق ومخاطر جمة، كما أنه لا يقدم معرفة بالنصوص المدروسة بقدر ما يقدم معرفة بالنظريات والمرجعيات التي يصدر عنها. ينظر، إبراهيم (عبد الله)، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، دار الأمان، الرباط، ط1، 2010، ص ص.79– 82.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد رد "سعيد يقطين" على أطروحات "عبد الله إبراهيم"، في مداخلة مطولة بعنوان: السرد والسرديات والاختلاف (وهم النظرية السردية العربية)، شارك بها في الملتقى الدولي للسرديات المنعقد ببشار يومي: 4/3 نوفمبر 2007 مقدما مناقشة علمية لمواقف "عبد الله إبراهيم" وآرائه وتصوراته وأحكامه النقدية، وموضحا –في الوقت نفسه– العديد من الالتباسات التي طبعت أفكاره التحليلية للكتابين، من ذلك إشارته إلى تركيز "عبد الله إبراهيم" على تشخيص التحاور والتفاعل مع النتاج الغربي، دون وعيه بطبيعة هذا التفاعل وطرائق ممارسته، رافضا وصف

نموذجه بالمطابقة والسجال؛ لأنه –كما يرى– أن مشروعه السردي قائم على الاستيعاب الجيد للنظريات السردية وفهمها وتعديلها وتشذيبها وفتحها على اجتهادات أخرى يمكن أن تسهم في تطوير السرديات وتوسيع مداخلها، وذلك طبعا بالانطلاق من العصر المعرفي الذي نعيش فيه بكل اتجاهاته وتياراته وإبدالاته وتناقضاته. ينظر، يقطين (سعيد)، السرد والسرديات والاختلاف (وهم النظرية السردية العربية)، ضمن كتاب الملتقى الدولي حول السرديات: القراءة وفاعلية الاختلاف يومي: 4/3 نوفمبر 2007، المنعقد بالمركز الجامعي ببشار، ص ص. 5–28.

ينضاف إلى هذه الانتقادات التي تعرض لها المشروع السردي لدى "سعيد يقطين" تلك الدعوات القائلة بموت السرديات، وانتهاء عهدها، بدعوى أنها لم تعد نموذجا صالحا للتطبيق. ولعله يمكن التّمثيل لذلك بما ذكره يقطين نفسه في كتابه السابق: النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية (ص. 38)، من أن القائمين على مختبر السرديات بالدار البيضاء بالمغرب لما نظموا ندوة حول السرديات، واعتذر "تودوروف"–وهو أحد رواد هذا العلم– بلباقة عن عدم الحضور بحجة أن السرديات لم تعد تعني له شيئا، اتخذوا ذلك ذريعة لإعلان موتها، وأوقفوا نشاط المختبر رغم المحاولات الكثيرة الداعية لبعث نشاطه من جديد. فكل ذلك لم يثن من عزيمة "سعيد يقطين"؛ إذ بقي وفيا للسرديات ومتشبثا بها إجراء نقديا وتحليليا في مقاربة مختلف الخطابات والنصوص السردية، منطلقا من ضرورة مواكبة ما استجد في الساحة النقدية العالمية، وداعيا إلى تطوير النظرة للسرديات وتجديدها بما يتلاءم مع العصر المعرفي الراهن.